صفحات من أوراق جدي الصفراء .. الجهالة أم الحكمة ؟

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 11 ديسمبر 2022

بقلم الدكتور زكريا الخنجي

يروي جدي في أوراقه الصفراء هذه الحكاية، يقول:

كان يا مكان في قديم الزمان قرية صغيرة في إحدى الجبال، وكان من بين سكان هذه القرية رجل من الأغنياء مشهور برجاحة العقل، فكان ممن يستشار ويؤخذ برأيه غالبًا، وبعد فترة من الزمن ساءت حالته الاقتصادية، وأصبح من الطبقة الفقيرة، لذلك أصبح إن حضر لا يُستشار، وإذا غاب لا يُنتظر.

ولكن دوام الحال من المحال — كما يقول جدي — إذ أنه بعد سنوات انقلب عسره إلى يسر، وضيقه إلى سعة وفرج، وتحصل في سنة خصبة علي كمية هائلة من الشعير والذرة والكثير من المحاصيل، وفي نفس الوقت مرت بالمنطقة ظروف مناخية قاسية جدًا مما استدعت أهل القرية إلى الاجتماع، ولما اجتمعوا افتقدوا الرجل، فاستدعوه إلى الاجتماع، ففكر وبدأ يراجع نفسه ويحدثها "لماذا الآن بعد كل هذا الإهمال وكل تلك السنوات الجدباء؟" ثم أخذ قراره أن يذهب للاجتماع.

ولكن قبل أن يتجم إلى الاجتماع عمد إلى منديل صغير وجعل فيه حفنة من الشعير والذرة وبعض المحاصيل التي كانت موجوده لديم في المخازن، فأخفاها تحت ثيابه، وعند حضوره جلس في مؤخرة المجلس، إِلا أَن كبير القرية استدعاه للجلوس في صدر المجلس احترامًا وتقديرًا، وبدأ النقاش بالصراخ والعويل، وفي أثناء النقاش قال لم كبير القرية: "ما رأيك يا عم ؟".

فسكت الرجل برهة من الوقت، وكان يحاول أن يوهمهم أنه يفكر، وبعد انقضاء برهة الوقت أخرج المنديل الذي به الشعير والذرة وما شابه ذلك، ثم طرحها أمام أهل القرية على الأرض فقال للجميع وهو يحدث المحاصيل: "تكلم يا شعير، تكلمي با ذرة، تكلمي أيتها المحاصيل".

فخرج من المجلس، والجميع في حالة من الذهول.

وضعت هذه القصاصة الصفراء من أوراق جدي جانبًا، وأنا أتذكر أني قرأت مثل هذه القصة ذات يوم، فذهبت أبحث في مكتبتي الورقية الموجودة عندي في البيت، رجعت إلى بعض الكتب القديمة التي لدي في المكتبة، وأنا أقول في نفسي "أني قرأت هذه القصة وربما أنا في الثانوية العامة، أي في السبعينيات من القرن العشرين".

بعد فترة وجدتُ القصة التي أنشدها في كتاب المفكر البحريني أستاذنا د. محمد جابر الأنصاري (لمحات من الخليج العربي) الصادر في إبريل عام 1970، وهي قصة الشيخ ميثم مع علماء العراق. من هو الشيخ ميثم ؟

أعتقد أن الكثير منا يعرف الشيخ ميثم أنه هو صاحب ذلك الضريح الموجود في منطقة (أم الحصم) مقابل فندق مون بلازا، ربما هذا صحيح، ويضيف أستاذنا محمد الأنصاري لتعريف الشيخ ميثم فيقول في كتابه "المتكلم الفيلسوف الأديب الذي انجبته البحرين – لا أقصد

البحرين بالمعنى التاريخي القديم، بل أقصد هذه الجزر التي نقف فوقها بالذات – في القرن السابع للهجرة، هو الشيخ كمال الدين ميثم بن عليّ بن ميثم".

وللشيخ ميثم حكاية مع علماء العراق، سأحاول أن أرويها باختصار عن أستاذنا محمد جابر الأنصاري، يقول: كان علماء العراق يراسلونه ويدعونه للتباحث والمناقشة والحوار في أمور العلم والدين، وذلك لرجاحة علقه وفكره وثقافته، إلا أنه كان يتعذر لهم دائمًا، وربما لأسبابه الخاص، إلا أن زملاءه استفزوه بأن شنعوا عليه آراءه المتشائمة ونعوا عليه اخفاءه لعلومه ومعارفه وانصرافه إلى مثل تلك النظرات والآراء.

وبعد فترة من الزمن، قرر الشيخ زيارة العراق، وعندما بلغ أراضي العراق دخلها خفية حتى لا يعلم به أحد، وذات يوم لبس ثيابًا رثه ممزقة، وأخفى ملامحه بالغبار والسواد، وتوجه إلى مجلس أصدقاءه الذين كانوا يلحون لحضوره والاستئناس بآرائه، والذين كانوا في شوق شديد للاجتماع به، وعندما دخل عليهم لم يعرفوه لذلك لم يلتفت له أحد، فجلس قرب الباب يستمع بأدب، وعندما طرحت على بساط البحث فجلس قرب الباب يستمع بأدب، وعندما طرحت على بساط البحث مسألة دينية عويصة أبدى الشيخ رأيه موثقة بكل البراهين والحجج، إلا منا الأصدقاء لم يكترثوا لرأيه وعلمه، بل طلبوا منه أن يسكت، وعندما حضر الطعام لم يشاركوه ولم يدعوه.

وفي اليوم التالي، لبس الشيخ أبهى ملابسه وتأنق وتعطر، وقصد مجلس القوم، وعندما دخل نهض الجميع مرحبين ومعانقين ومهللين، وأجلسوه في صدر المجلس، وبعد برهة من الزمن طُرحت القضية نفسها التي طرحت بالأمس، وهنا أدلى الشيخ ميثم ببعض الآراء السخيفة والمتهللة ومن غير أي دليل أو حجج أو براهين، مجرد آراء لا ترتقي لمستوى الفكر والعلم، إلا أن الجميع أبدى أعجابه بما طرح الشيخ من آراء ومفاهيم وما إلى ذلك.

وعندما حضرت المائدة، وطُلب من الشيخ أن يتقدم ويأكل هو الأول احترامًا وإجلالاً، فقام الشيخ حينئذ بغمس طرف كمه في الحساء قائلاً: "كل يا كُمي".

وعندما أبدى الحضور استغرابهم من هذا التصرف، قص عليهم الشيخ ميثم الحكاية من أولها حتى هذه اللحظة، وعندها قال لهم: "لقد رجحتم الجهالة على العلم، والغنى على الفقر".

ويحاول أستاذنا الأنصاري أن يوضح تصرف الشيخ ميثم عندما كان يتعذر من الذهاب إلى العراق في نفس الكتاب فيقول: "الواقع إن شيخنا ميثم كان على حق، فلا يضيع عمره في طلب العلم والتبشير به في مجتمع عربي إلا المغفل".

ثم يقول أستاذنا الأنصاري معقبًا على علم الشيخ "فألقينا بحديثه عرض البحر، وأخذنا نطلب منه الكرامات والخوارق ونقدم له النذور بدلاً دراستنا لكتبه والمفاخرة بها، والإضافة إليها بجهودنا الخاصة المتواصلة".

والغريب أيها السادة، إننا في الوطن العربي نتعامل بهذه الصورة مع جميع العلماء والمفكرين والمخططين، وخاصة عندما يكبرون ويحالون إلى التقاعد، وكأن التقاعد يعني إفراغ عقولهم من كل المعلومات التي يملكونها والتى استفادت من الجهات التي كانوا يعملون فيها ومعها لسنوات طويلة، والجلوس في المنزل من غير عمل ومن غير فائدة، وهذا ما نراه في الكثير من الدول العربية، وعندما يحتاجون إلى شخصيات من أجل القيام ببعض الأعمال فإنهم إما أن يأتون بهم من الخارج ومن الدول الأجنبية سواء الأسيوية أو الغربية، أو أن يستعينوا ببعض ممن ليست لديهم الخبرات الكافية، فلا هؤلاء يعرفون ولا هؤلاء يملكون ما يُعطون، وإن كنا لا نرفض هذه التوجهات في بعض الأحيان، إلا أن هذا لا يمنع من الاستفادة من المفكرين والمخططين الذين عاشوا الكثير من التجارب في العمل والإدارة والتخطيط والتفكير، فنحن هنا لا نتحدث عن القدرات الجسدية من أجل أداء بعض الممارسات الرياضية، وإنما نتحدث عن فكر وتخطيط وما إلى ذلك، وهذه الأمور لا تحدها الأعمار ولا القدرات الجسدية.

وكذلك فنحن لا نقصد استبعاد الشباب وتغيير الدماء والوجوه بين الفينة والأخرى، إذ أن بعض المسؤولين في الدول العربية، نعتقد أنهم قد لصقوا أنفسهم في المناصب بمادة لاصقة فلا يمكن تنحيهم من كل تلك المناصب، وإن نُزع من منصبه فإنه بكل هدوء يستحدث له منصب جديد.

ولكن في الحقيقة فإننا لا نريد هذا أو ذلك، وفي المقابل فإن الحقيقة تقول – أيضًا – أنه يمكن الاستفادة من كل شخص وإنسان يمكن أن يستفاد منه، فالوطن العربي يزخر – وهذا كلام من قلب صادق – بكل العقول والأفكار والأشخاص الذين يمكن أن يقدموا للمؤسسات والحكومات بالكثير من الأفكار والآراء والاستشارات الصادقة من أجل تطوير الوطن العربي، وقد يسأل سائل. "أين يقبع هؤلاء؟"، نقول إنهم يعيشون في عزلة، ويعيشون وهم يندبون حالهم بعد كل سنوات العطاء، يندبون حالهم لأنهم مفكرون لأنهم أصحاب أفكار وآراء يعيشون وهم يفكرون بمغادرة أوطانهم ليعيشوا في دول أخرى يمكن أن يستفيدوا من قدراتهم وإمكانياتهم وأفكارهم، وهؤلاء هم العقول المهاجرة، وهم كثر، يعيشون في عزلة عندما وجدوا أن التفاهة هي المهاجرة، في الأوساط المجتمعية والمهنية.

ذات يوم اتصلت بأحد الأخوة الكتّاب في دول عربية، وطلبت منه إجراء مقابلة إذاعية له للاستئناس برأيه وأفكاره، فقد كان هذا الكاتب من رواد العمل الفكري والروائي، فقال ببساطة: "اسمح لي، وإن كنتُ لا أود أن أرفض لك طلبًا، وإنما أنا في حالة اكتئاب بسبب الأوضاع التي أعيشها اليوم".

وذات يوم التقيت بالدكتور يعقوب الشراح رحمه الله – وهو أحد أهم الأعلام والكتّاب الذين تخصصوا في علم (التربية البيئية) ولم العديد من الكتب في ذلك، وفي الحقيقة فنحن نُعد من تلاميذه في هذا المجال – في ندوة في دولة عربية، فذهبت للقائم وتحيته فأي فخر للقاء مثل هذه القامة الشامخة، فقبلته على رأسه احترامًا وتقديرًا.

وأثناء الندوة تحدث أحد الشباب المتخرجين حديثًا، وأدعى أنه هو أول من تحدث في موضوع (التربية البيئية)، وأنه صاحب الفضل، وأعطى لنفسه كل الثناء والتقدير، فطلبت الأذن بالكلام، وعندما تحدثت نهرته ورددت كلامه، إذ لا يمكن أن يدعي هذا الكلام وخاصة في وجود الدكتور يعقوب الشراح رحمه الله. وأثناء الاستراحة ذهبت للدكتور الشراج أواسيم، فقال لا تهتم فنحن نواجه الكثير من هؤلاء.

وربما نحن نتساءل هنا، هل نفضل الجهالة على العلم والعلماء ؟ هل نترك مفكرينا يعانون بسبب الجهالة ؟

نقول للقادة في كل مكان من الوطن العربي، ابحثوا عن هؤلاء المفكرين والقادرين على العطاء حتمًا ستجدونهم في مكان ما، كل الذي ينتظرونه إشارة ومساعدة ويدًا تسحبهم من العزلة التي يعيشون فيها. فقيمة الرجل تكمن فيما يملكم من العلم والحكمة، ولا تكمن في نسبم أو ما يملكم من الدراهم والدنانير وملابس زاهية.